حلقة البحث التاريخي

إن الحلقة هي الاطار الذي تدور فيه عملية البحث التاريخي بحيث يتم فيه قراءة الروايات وتحديد الزمن التاريخي والمكاني وعلى ضوء ذلك وضع عنوان مناسب لها ثم تبدأى عملية تتبع المعلومات

ولكن السؤال الأكثر إلحاحاً وأهمية هو: ما هو التاريخ في جوهره؟ فالتاريخ في واقع الأمر ليس الوقائع أو الأحداث المتتالية التي نقرأها في كتب التاريخ أو نشاهدها في الأفلام التاريخية، سواء وثائقية أو روائية، بل هو عبارة عن «روايات»، وبمعنى أدق، وفي أغلب الأحوال، تعتمد عملية «التأريخ» على رواية واحدة، المفترض أنها الرواية الصحيحة، أو «الرواية المعتمدة» لتلك الأحداث التي جرت في الماضي، سواء من حيث سرد الوقائع أو تفسير وتأويل مثل هذه الأحداث والوقائع، أو إيجاد الروابط التي قد تكون خافية أو غير واضحة في شكلٍ تام في ما بين تلك الأحداث والوقائع.

لنأخذ مثالاً محدداً برز خلال الفترة الأخيرة على أرض الواقع، وذلك للتدليل على ما ذكرناه ولتقريب المعنى المقصود، فقد احتفل العالم، بخاصة في أوروبا أخيراً بالذكرى السبعين لانتهاء الحرب العالمية الثانية بهزيمة النازية في ألمانيا والفاشية في إيطاليا، حيث إن أوان الاحتفال بالذكرى السبعين لانتهاء الحرب في آسيا، ومن ثم بالانتهاء الكامل للحرب العالمية الثانية، يحل في شهر آب (أغسطس) المقبل.

دارت هذه الاحتفالات والفعاليات في مناسبات منفصلة في موسكو من جهة وفي مدن غربية من جهة أخرى (لندن، باريس، برلين، ومدينة غدانسك البولندية)، وسط حضور هنا ومقاطعة هناك على خلفية التوتر في العلاقات الروسية الغربية بسبب الأزمة الأوكرانية.

ويتم تدريس مادة التاريخ في كافة مدارس وجامعات العالم، كذلك يتم تداول تاريخ الحرب العالمية الثانية في مراكز الأبحاث وكتب التاريخ المتعارف عليها، على أساس أن ذلك النصر الذي تحقق للحلفاء في نهاية تلك الحرب وفر الحماية للبشرية وحفظ الإنسانية من مستقبل مظلم، لو أن النازية والفاشية انتصرتا. ولا جدال في أن الكثير من جوانب هذه الرواية صحيحة، ولكن تبقى حقيقة أن هناك تباينات لا تزال حتى اليوم بين الرؤية الروسية من جهة والتفسير الغربي من جهة أخرى لأسباب ومسار ونتائج الحرب. إلا أنه إضافة إلى ذلك فعلينا أن نتذكر أمرين:

الأمر الأول أنه حتى عام 1991، وتحديداً حتى سقوط الاتحاد السوفياتي وانهيار المنظومة الشيوعية في شرق ووسط أوروبا، كانت هناك أصلاً روايتان رسميتان لوقائع الحرب العالمية الثانية، واحدة لدى المعسكر الغربي، وأخرى مختلفة عنها في شكل كبير، وإن لم تكن بالضرورة متناقضة تماماً معها، هي الرواية السوفياتية. وارتكزت هذه التباينات بصفة أساسية على توصيف الأسباب التي أدت إلى اندلاع الحرب، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر، تحديد المسؤول عن تشجيع ألمانيا الهتلرية وحليفتها إيطاليا على إشعال فتيل الحرب والمضي في سياساتهما العدوانية في أوروبا والعالم، وهل السبب في ذلك كان معاهدة عدم الاعتداء بين ألمانيا والاتحاد السوفياتي الموقعة بين هتلر وستالين في 23 آب (أغسطس) 1939، بحسب الرواية الغربية الرسمية آنذاك، أم إلقاء اللوم على الموقف المتراخي واللامبالي من جانب كلٍ من بريطانيا والولايات المتحدة إزاء الخطوات العدوانية المتتالية في مرحلة أولية من جانب كل من ألمانيا وإيطاليا، ومن ذلك مثلاً احتلال إيطاليا للحبشة، والذي أنبأ عن نية «إمبريالية» ألمانية/ إيطالية إزاء أوروبا، بل وتجاه العالم ككل، وذلك بالطبع بحسب الرواية السوفياتية الرسمية في ذلك الوقت.

يضاف إلى ذلك التباين حول العامل الحاسم في انتهاء الحرب وتحقيق النصر على كل من النازية والفاشية، وهل هو الإنزال الأميركي الغربي على سواحل النورماندي وتقدم الأميركيين وحلفائهم من البريطانيين وغيرهم في أوروبا الغربية، بالتعاون مع المقاومة الشعبية داخل تلك البلدان التي كانت تحت الاحتلال النازي، بخاصة في فرنسا، وهي مقاومة غلب عليها الطابع الليبرالي الديموقراطي، وذلك بحسب الرواية الغربية الرسمية، أم أن الفضل يعود إلى معركة ستالينغراد الحاسمة وانتصار الجيش السوفياتي الأحمر فيها ودحر القوات الألمانية الغازية وما تلاها من تقدم الجيش الأحمر لمطاردة الجيش الألماني في شرق ووسط أوروبا، أيضاً بالتعاون مع المقاومة الشعبية داخل البلدان التي كانت تحت الاحتلال النازي، ولكنها مقاومة يسارية أو شيوعية هذه المرة، وذلك بحسب الرواية السوفياتية الرسمية.

أما الأمر الثاني، والأكثر خطورة، فهو الذهاب ذهنياً إلى خطوة أبعد كثيراً من ذلك، والدخول في جهد عقلي تخيلي، وفي سياق افتراضي بحت منقطع الصلة عما دار على أرض الواقع بعد ذلك، لكي نطرح السؤال: ماذا كان يمكن أن تكون الرواية «الرسمية» والمعتمدة باعتبارها «الرواية الصحيحة» لتفسير أسباب تلك الحرب ومسارها ونتائجها لو أن النازية والفاشية انتصرتا فيها وسيطرتا على أوروبا، أو على أغلب مناطقها على الأقل، وربما على مناطق أخرى في العالم في قارتي آسيا وأفريقيا، بما في ذلك الشرق الأوسط وشمال أفريقيا؟ ألم تكن التفسيرات السائدة اليوم، بل ربما الوقائع ذاتها، ستكون على طرفي نقيض مما هو سائد الآن من قراءة وفهم؟

إن تأريخ الحرب العالمية الثانية وما يكتنفه من مصاعب بسبب تباين الروايات في شأن أسبابها ومسارها ونتائجها ليس الحالة الأولى، ولن تكون الأخيرة في هذا السياق، كما أن رحلة البحث عن «الروايات الصحيحة» للوقائع والأحداث التاريخية لا تقتصر على أوروبا وحدها أو على الغرب بمعناه الجغرافي والتاريخي والثقافي، بل إنها تشمل الإنسانية جمعاء. يسري هذا على العالمين العربي والإسلامي، كما يسري به على مناطق أخرى من العالم مثل بلدان الشرق الأقصى وجنوب شرقي آسيا. وعندما تسعى الشعوب للبحث عن الروايات الصحيحة لتاريخها، فإنها تعلم جيداً أن أصحاب الروايات السائدة هم مجرد بشر، وبالتالي لا تحيط الروايات القائمة بأي درجة من درجات القداسة، لأن القداسة تقتصر على نصوص الكتب الدينية ولكنها لا تشمل بشراً اجتهدوا للتأريخ، وربما عكسوا مواقف أو رؤى أو مصالح أطراف معينة عند القيام بعملية التأريخ تلك، وكل ما تحتاجه الشعوب هو النظر إلى كافة الروايات الموجودة من منظور نقدي وبرؤية موضوعية، من دون تخلي عن الانتماء الوطني أو القومي أو الالتزام الحضاري والثقافي بالثوابت القيمية لكل شعب أو أمة.

ومن الشعوب التي قامت بجهد كبير لإعادة قراءة وفهم وتفسير، ومن ثم كتابة تاريخها، هو الشعب الإسباني بعد وفاة الجنرال فرانكو عام 1975. حيث إنه في إطار السعي لإطلاق عملية لتحقيق المصالحة الوطنية وإعادة بناء الدولة على أسس جديدة تقوم على المشاركة بين مختلف فئات الشعب، تم الاتفاق على أن من المقدمات الضرورية لتحقيق ذلك هو إعادة كتابة تاريخ إسبانيا على أساس «الروايات الصحيحة»، وذلك عوضاً عن الروايات التي فرضها فرانكو كـ «روايات معتمدة» على مدار سنوات حكمه، خصوصاً في ما يتعلق بالحرب الأهلية بين الجمهوريين واليمين الإسباني بزعامته بين عامي 1936 و1939. وبالفعل شكلت لجان عدة وعقدت جلسات استماع متوالية لهذا الغرض.

ولا شك أن لدى العرب والمسلمين أسباب قوية ودوافع وجيهة اليوم، ربما أكثر من أي وقت مضى، لإعادة النظر في الروايات المعتمدة في كتابة مراحل كثيرة وهامة من تاريخهم، ربما تمت كتابتها أصلاً في بعض الأحيان على أساس القاعدة الشهيرة القائلة إن «التاريخ يكتبه المنتصرون»، أو ربما في أحيان أخرى كان يتم الركون في تلك الروايات إلى التركيز على تسجيل وكتابة تاريخ الحكام والاكتفاء بذلك فقط، بينما الأساس هو كتابة تاريخ الشعوب، أو ربما كان الدافع هو التركيز على التاريخ السياسي، وربما أيضاً، بدرجة أو أخرى، التاريخ الاقتصادي، ولكن من دون الاهتمام الواجب بالتاريخ الاجتماعي، وحتى عندما تم تسجيل التاريخ الثقافي فقد تم التركيز على ثقافة النخب وليس ثقافة القطاعات العريضة من الشعوب. وعلى العرب والمسلمين إدراك أن مثل هذا الجهد لن يكون سهلاً وأن الطريق لن يكون ممهداً ولا مفروشاً بالورود، ولكنه بالتأكيد جهد يستحق أن يبذل للوصول إلى الروايات الصحيحة، أو على الأقل إلى أقرب الروايات إلى الصحة في عملية التأريخ، أو لنقل إعادة التأريخ.

ولم يعد أحد ينكر في عالم اليوم أنه لكي نقوى على فهم الحاضر في شكل واضح وشامل يتعين علينا بداية أن نلم بالتاريخ إلماماً واعياً، فالتاريخ وحده هو الذي يوفر لنا الفرصة الحقيقية الوحيدة للتعرف إلى الوعاء الذي ظهرت فيه وتطورت وتبلورت خلفيات ما يجري اليوم من أحداث ويحمل بداخله المفاتيح التي نحتاج إليها حتى نتمكن من فهم ما يبدو ملتبساً ومستعصياً على فك رموزه من مجريات الحاضر. ونحن العرب تحديداً نتعرض للاتهام منذ فترة بعيدة بأننا أمة لا تقرأ التاريخ، وإن قرأته لا تجيد قراءة وفهم ما هو مكتوب وما هو بين السطور، وذلك بغض النظر عن مدى صحة هذا الاتهام من عدمه.